أسرار السعادة الأبدية عند الغزالي من خلال رسالته كيمياء السعادة

THE SECRETS OF ETERNAL HAPPINESS FOR AL-GHAZALI, THROUGH HIS MISSION, THE CHEMISTRY OF HAPPINESS

الدكتور: محمد الرزقي
المعهد العالي لأصول الدين
جامعة الزيتونة، تونس

Dr. Mohamed AREZKI
Higher Institute of Theology
University of Ezzitouna TUNISIA
Malika_dja@hotmail.fr

استلم: ***Received:*** **2019/07/19**	قُبل للنشر: ***Accepted:*** **2020/01/21**

ملخص:

تعتبر السعادة غاية عليا سعى الوعي الإنساني إلى تمثلها وتحقيقها، وتسابق في هذا المضمار أفذاذ العقول والقرائح من فلاسفة وصوفية وأدباء، وكل قدم مقاربته انطلاقا من منهجه وطبيعة رؤيته للسعادة ذاتها. وقد انتهى أوائل الفلاسفة وخاصة أفلاطون (تـ347ق.م) وأرسطو (تـ322ق.م) إلى أن السعادة هي الخير، لكن هذا الخير «ينبغي أن تتوفر فيه شروط، أولا أن يكون مرغوبا فيه لذاته وليس وسيلة لشيء آخر، ثانيا أن يكون قادرا بذاته على إرضائنا، ثالثا أن يكون من النوع الذي يختاره الرجل الحكيم.

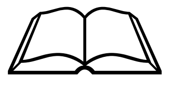
الكلمات المفتاحية: السعادة؛ كيمياء السعادة؛ الأبدية؛ الغزالي.

Abstract :

Happinessis a paramountaimthathumanconsciousness has alwayspursued and sought to achieve. The greatest and mosteminentthinkers, such as philosophers and men of letters, have throughouthistorycompeted in thisrealm to fulfillit, eachwithhisownapproach and underhisown angle of vision of happinessitself.

Ancientphilosophers, notablyPlato (427 - 347 BC) and Aristotle (384 - 322 BC), came to the conclusion thathappinessis good as opposed to evil. However, this good shouldsatisfyspecific conditions. Firstly It ought not bedesired for itsownsake or be a means to another end. Secondlyitshouldbe able to satisfyourrequirements on itsown and, thirdly, be of the sort that a wise man wouldopt for.

Keywords : *Happinese; Chemistry of happiness; Eternity; Al-Ghazali.*



 corresponding author: Malika_dja@hotmail.fr

مقدمة:

تعتبر السعادة غاية عليا سعى الوعي الإنساني إلى تمثلها وتحقيقها، وتسابق في هذا المضمار أفذاذ العقول والقرائح من فلاسفة وصوفية وأدباء، وكل قدم مقاربته انطلاقا من منهجه وطبيعة رؤيته للسعادة ذاتها.

وقد انتهى أوائل الفلاسفة وخاصة أفلاطون (تـ347ق.م) و أرسطو (تـ322ق.م) إلى أن السعادة هي الخير، لكن هذا الخير «ينبغي أن تتوفر فيه شروط، أولا أن يكون مرغوبا فيه لذاته وليس وسيلة لشيء آخر، ثانيا أن يكون قادرا بذاته على إرضائنا، ثالثا أن يكون من النوع الذي يختاره الرجل الحكيم»[1].

لنجد هذا المعنى الأخلاقي للسعادة حاضرا بقوة في أنساق جل أعلام الفلسفة الإسلامية مثل الفارابي (تـ339هـ/ 950م) وابن سينا (427هـ/ 1037م)، وابن مسكويه (421هـ/ 1030م)، فالفارابي مثلا يرى أنّ السعادة أمر ممكن شرط التحلي بجملة من الفضائل ومن أهمها «الفضائل النظرية والفضائل الخلقية[2] وجميع هذه الفضائل مأتاها التأمل لا العمل، إذا يعتبر الفلاسفة المعرفة العقلية أرقى من المعرفة الذوقية، نظرا لأنّ المعرفة الذوقية تتسم بطابع ذاتي شديد الخصوصية والتي تقوم على التجارب الفردية والمرتهنة إلى مزاج الأفراد، وهو ما يجعلها أقرب للفن منها للعلم، فما لا يمكن التدليل عليه لا يعدو أن يكون خبرات عملية ذاتية يصعب أن تخضع لمبدأ التعميم والاستقراء[3].

كما أدلى الصوفية بدلوهم في مسألة السعادة وأفردوا لها بعض مؤلفاتهم مثلما فعل الغزالي في رسالته الموسومة بكيمياء السعادة، فماهي المشروعية المعرفية التي يحوزها الغزالي حتى يدلو بدلوه في

---

(1) الموسوعة الفلسفية العربية: معهد الإنماء العربي، ط/1، 1988م، 477/1.

(2) الفارابي (أبو نصر): تحصيل السعادة، دار الهلال، ط/1، 1995م، ص 25.

(3) راجع الموسوعة الفلسفية العربية: 608/1.

مسألة عويصة أرقت عقول أهل النظر عبر العصور؟ ولماذا اختار لرسالته هـذا العنـوان الـذي يـوحي بالغموض؟ وما هو السبيل لتحقيق السعادة حسب الغزالي؟

1) التعريف بالغزالي وبرسالته كيمياء السعادة:

أ) مكانة الغزالي في الفكر الإسلامي:

ولد محمد بن أحمد الغزالي المعروف بأبي حامد بطوس سـنة (450هــ/ 1057م)، وحامـد هـذا ولد توفى له صغيرا[1]. وكان والده رجلا متواضع الحال يعمل في غزل الصوف، لذلك قيل أنه ينسب لحرفة والده، في حين يرى شق آخر من الباحثين أنها نسبة إلى بلدة غزالة التي يعتقد أنها مسقط رأسـه؛ وغزالة تقع قرب طوس، وقد تيّتم صغيرا مما جعله يتوجه إلى طلب العلم فتفقه على إمام الحرمين أبي المعالي الجويني (تـ478هــ/ 1185م)، وقـد عـاد في آخـر عمـره إلى مسـقط رأسـه وتـوفي فيهـا سـنة (505هـ/ 1111م)[2].

وحظي الغزالي باهتمام لافت في حياته وبعد وفاته، فقد كـان مجلسـه في نظاميـة بغـداد يحضـره رؤوس العلماء وأعيان الدولة، وتذكر بعض المصادر أن عدد الأمراء الذين يحضرون هذا المجلس يربـو عن المائة[3]، فالغزالي لم يكن مجرد عالم محلي يرتبط تأثيره بحدود العراق فحسب بـل أنّ تـأثيره وسـائر مناظراته تـنقل شرقا وغربا حتى أنّ كتبه وقع ترجمتها في أوروبا بعـد حـوالي ثلـث قـرن علـى وفاتـه فحسب[4].

---

(1) راجع المناوي (زين الدين): طبقات الصوفية، دار صادر، بيروت، لبنان، ط/1، 1999م، 293/2.

(2) راجع ابن كثير: البداية والنهاية، دار الفجر للتراث، القاهرة، ط/1، 2003م، 195/12.

(3) راجع المناوي: طبقات الصوفية، 293/2.

(4) راجع عزوز (محي الدين): اللامعقول وفلسفة الغزالي، دار العربية للكتاب، 1988م، ص71.

وألّف حجة الإسلام في مختلف العلوم من فقه، وأصول فقه، وعلم كلام، وفلسفة، ومنطق، وتصوف، فقد كان عالما موسوعيا شاملا نجح في النفاذ إلى أعماق الروح الإسلامية[1]. ومنح الإسلام في عصره وبعد عصره ذوقا جديدا وعمقا بعيدا[2]. لما هاجم التقليد واعتبر أن الإيمان ليس مجردا إقرارات يرددها اللسان وإنّما حقيقة يحياها الوجدان فأثار بذلك «مشكلة الشكّ واليقين فلم يجعل المعرفة الدينية تقليدا»[3]. حتى عدّ الغزالي مفكرا استثنائيا في مجال المعرفة الدينية نظرا لحجم القضايا والمشاكل والاختلافات التي أثارها[4].

ولم يكتف الغزالي بالتحصيل النظري بل أنه سلك الدرب العملي وانخرط في طريق التربية الروحية لما التحق بصفوف الصوفية، ووضع الغزالي خصوصية هذه التجربة في كتابه المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال. فيكون بذلك قد نحت منهجا خاصا به ميّزه عن السابقين واللاحقين في الحقل الصوفي خصوصا ومجال الفكر الإسلامي عموما.

ويقوم هذا المنهج على «قوة الحجة وسداد البرهان والقدرة الفائقة على الجدل والدقة في تمحيص الأقوال»[5]. ويسند هذا المنهج تجربة روحية عميقة بلغت منتهاها لما تخلص الرجل من كل علائق الدنيا بما فيها مهمة التدريس بالمدرسة النظامية وتفرغ للذكر والتأليف، فقد أقام بمنارة الجامع الأموي نحو عشر سنين[6].

وتوج هذه الفترة بتأليفه كتاب إحياء علوم الدين والذي يعد مظهرا من مظاهر حيوية الفكر الصوفي، ووثيقة جدّ هامة تؤكد على عدوة التصوف إلى رحاب الكتاب والسنّة، والحقيقة أنّ منهج

---

(1) م.ن، ص46.
(2) الموسوعة الفلسفية العربية، 263/1.
(3) م،ن، الصفحة نفسها.
(4) راجع المعموري(الطاهر): الغزالي وعلماء المغرب، الدار التونسية للنشر تونس، والمؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1990م، ص05.
(5) عزوز (محي الدين): اللامعقول وفلسفة الغزالي، ص64.
(6) راجع ابن كثير: البداية والنهاية، 195/12.

الغزالي الذي يستند إلى نصوص الكتاب والسنة نجده حاضرا بقوة في مختلف مؤلفاته بما فيها رسالته كيمياء السعادة.

ب) التعريف برسالة كيمياء السعادة:

تمثل رسالة كيمياء السعادة مقاربة قدمها الغزالي لمفهوم السعادة وسبل تحقيقها، والتي هي في الأصل كتاب كان ألفه باللغة الفارسية، ويقع في مجلدين، وعرف طريقه للنشر في أكثر من طبعة فضلا عن ترجمته إلى أكثر من لغة مثل التركية والإنجليزية.

واحتوى هذا الكتاب في لغته الفارسية على أربعة أقسام، ويضم كل قسم عشرة أصول وهذه الأقسام هي العبادات والمعاملات والمهلكات والمنجيات[(1)]. ويلاحظ المطلع على كتاب «كيمياىسعادت» التشابه الكبير بينه وبين كتاب إحياء علوم الدين سواء من جهة التقسيم أو المضمون فضلا عن طريقة عرض المسائل «حتى ليمكن أن يقال إنه المقابل الفارسي للنّص العربي للإحياء»[(2)].

وتكمن أهمية رسالة كيمياء السعادة باللغة العربية أنّها اختصرت كتابا ضخما في بضع صفحات، فجاءت هذه الرسالة كثيفة المعاني قليلة الماني وكتبت بأسلوب برقي بعيدا عن الإسهاب والاستدراك، فنجد الغزالي ينتقل من مسألة إلى أخرى دون أن يحفل كثيرا بالتأصيل والتقعيد، وإنّما جعل هدفه الأساسي توضيح طريق الوصول إلى السعادة الحقيقية.

وضمت هذه الرسالة اثنان وعشرون فصلا رغم أن عدد صفحاتها لا يتجاوز العشر صفحات فحسب، وعالجت مسائل غاية في الأهمية مثل مفهوم النفس والقلب والروح وطبيعة العلاقة التي تربط بين جميع مكونات الذات. مما يجعل كل فصل من هذه الفصول بمثابة المؤلف المختصر، وجميع هذه الفصول تخدم غاية واحدة وهي كيفية الوصول إلى السعادة الدائمة.

---

(1) راجع الغزالي: كيمياءالسعادة، تحقيق حسين أحمد أمين، شركة استشارات علمي، طهران، 1380هـ.

(2) بدوي عبد الرحمن: مؤلفات الغزالي، وكالة مطبوعات الكويت، ط/2، 1977م، ص172.

ورحلة البحث عن السعادة هي رحلة كلّ صوفي في سيره، لذلك نجد الغزالي يفتتح رسالته باستهلال غاية في الدقة يخص فيه مختلف مراحل السير عند القوم، وخصّ كل صنف من السالكين بما يناسبهم من الأعمال والمقامات فذكر المجاهدة والمشاهدة، وفضل الذكر والفكر، وأهمية الزهد في تطهير الأشباح وترقية الأرواح، فيقول: «الحمدلله الذي أصعد قوالب الأصفياء بالمجاهدة وأسعد قلوب الأولياء بالمشاهدة، وحلى ألسنة المؤمنين بالذكر، وجلى خواطر العارفين بالفكر، وحرس سواد العباد عن الفساد، وحسن مراد الزهاد عن السداد، وخلص أشباح المتقين من ظلم الشهوات، وصفى أرواح الموقنين عن ظلم الشبهات»[1].

كما تضمن هذا الاستهلال إقرارا من الغزالي أن ما سيورده في هذه الرسالة هو محض عطاء وتفضل من الله لمن «اخترق واغترف من نهر فضله وإفضاله»[2]. وعطايا الله متفردة ولا تعرف الانقطاع، ومن بين هذه العطايا معرفة أسرار السعادة الأبدية؛ لكن لماذا ربط الغزالي بين الكيمياء والسعادة؟

وهل الوصول إلى السعادة الروحية يتطلب معرفة بجملة من الأسرار؟.

2) علاقة السعادة بالكيمياء عند الغزالي:

ينطلق الإمام الغزالي في أول فصل من رسالته وبعد الاستهلال مباشرة فيقول: «اعلم أن الكيمياء الظاهرية لا تكون في خزائن العوام وإنّما تكون في خزائن الملوك فكذلك كيمياء السعادة لا تكون إلا في خزائن الله»[3].

---

(1) الغزالي: مجموعة رسائل الغزالي، رسالة كيمياء السعادة، دار الفكر، بيروت، ط/1، ص419.

(2) م.ن، ص.ن.

(3) الغزالي: مجموعة رسائل الغزالي، رسالة كيمياء السعادة، ص 419.

فأراد الغزالي منذ البداية أن يبين أهمية السعادة التي يمتلك أسرارها، وأنها ليست شيئا مبتذلا ومتاحا للعموم، إنّما هي علم النخبة وغاية في النفاسة. لكن لماذا ربط السعادة بالكيمياء؟ وهل توجد كيمياء روحية موضوعها المسائل المعنوية؟

اختيار الغزالي لعنوان رسالته أن تكون كيمياء السعادة لم يكن اختيارا اعتباطيا وإنّما كان الرجل محكوما بصورة الكيمياء في عصره، والتي كانت «صناعة يحرص محترفوها عن كتمان سرّها، بإحاطتهم إيّاها بهالة من الغموض والسحر»[(1)]. فقد كان هدف هذا العلم تحويل المعادن البخسة إلى ذهب أو فضة عن طريق استخراج الإكسير الذي إذا ألقى على الجسم المعدني المستعد لقبول صور الذهب أو الفضة بالاستعداد القريب من الفعل مثل الرصاص والقصدير والنحاس... ويكنّون عن ذلك الاكسير إذا ألغزوا في اصطلاحاتهم بالروّح وعن الجسم الذي يلقى عليه بالجسد... وصور هذا العمل الصناعي... هو علم الكيمياء[(2)].

وصنف هذا العلم عند أصحابه من أرقى العلوم على الاطلاق، بل عدّ شرطا في تثبيت أقدام الحكيم في علم الفلسفة، وينقل ابن النديم (ت384هـ/ 1047م) كلاما منسوبا للرّازي (ت311هـ/ 923م) وهو أحد أعيان الصنعة فيقول: «ورغم أبو بكر الرازي وهو محمد بن زكرياء أنه لا يجوز أن يصح علم الفلسفة ولا يسمى الإنسان العالم فيلسوفا إلا أن يصح له علم صناعة الكيمياء»[(3)]. وتُمكن هذه الصناعة صاحبها حسب الرازي أن يستغنى «عن جميع النّاس ويكون جميعهم محتاجا إليه في علمه وحاله»[(4)].

(1) الطائي(فاضل أحمد): علم الكيمياء والصيدلة عند العرب، مكتبة مدرسة الفقاهة، د.ت، ص07.
(2) ابن خلدون (عبد الرحمن): المقدمة، دار الجيل بيروت، د.ت، ص 557.
(3) ابن النديم: الفهرست، دار المعرفة، بيروت، د.ت، ص351.
(4) م.ن، ص.ن.

والمعنى الذي يقصده الغزالي أن علم الكيمياء كان علم خاصة الخاصة وصناعة «خطيرة» تتصف بالسرية، لذلك كان هذا العلم في الحضارات السابقة مثل الحضارة الفرعونية اختصاصا كهنوتيا بامتياز تحاط ممارسته بالكتمان ويخفى عن عيون النّاس[1].

وانعكست هذه السرية على مدونة علم الكيمياء عامة في تلك الحقبة، لذلك نجد ابن خلدون (تـ808هـ/ 1406م) لما يعرف بأهم روّاد هذا العلم في الحضارة الإسلامية وهو جابر بن حيان (200هـ/ 815م) والذي نسب هذا العلم له «فيسمونه علم جابر»[2]، يصف مؤلفاته فيقول: «وله رسالة كلّها شبيهة بالألغاز»[3]، بل ألف محمد بن زكرياء الرازي كتابا في الصنعة سماه سرّ الأسرار[4] فاتصف هذا العلم بالسرية المطلقة في ممارسته وطريقة تدوينه.

ويشير ابن خلدون في مقدمته إلى مسألة أخرى غاية في الأهمية لما يتعرض بالتعريف لأهم شخصية في علم الكيمياء ببلاد الأندلس وهو مسلمة المجريطي (تـ398هـ/ 1007م)، فيذكر له مؤلفات وأهمها «كتابه الذي سماه رتبةالحكيم وجعله قرينا لكتابه الأخر في السحر والطلمسات والذي سماه غاية الحكيم»[5]. بمعنى أنه يوجد صلة بين علم الكيمياء والسحر، وهو ما جعل ممارستها تتصف بضرب من السرية المطلقة ولا تمارس إلا في الأقبية المغلقة، لذلك يعلق ابن خلدون على مؤلفات مسلمة المجريطي فيقول: «وانظر كيف سمّى مسلمة كتابه فيها رتبة الحكيم، وسمّى كتابه في السحر والطلمسات غاية الحكيم، إشارة إلى عموم موضوع الغاية وخصوص موضوع هذه لأن الغاية أعلى من الرتبة فكان مسائل الرتبة بعض من مسائل الغاية»[6].

---

(1) راجع الطائي (فاضل أحمد): علم الكيمياء والصيدلة عند العرب، ص07.
(2) ابن خلدون (عبد الرحمن): المقدمة، ص557.
(3) م.ن،ص.ن.
(4) راجع عبد الحميد طه (عبد المقصود): الحضارة الإسلامية، دراسة في تاريخ العلوم، دار الكتب العلمية، 2004م، 419/1.
(5) ابن خلدون (عبد الرحمن): المقدمة، ص 558.
(6) م.ن، ص.ن.

فالغزالي لما أقام مقابلة بين «الكيمياء الظاهرة» و»كيمياء السعادة» أراد أن يبين نفاسة هذا العلم وصعوبة تحصيله وخاصة الوصول إلى أسرار الصنعة والإحاطة بها، ولا يفهم من ذلك ولع الغزالي بأي شيء من علوم السحر والطلسمات أو حتى علوم الحرف والعدد والتي احتفى بها المتأخرين من الصوفية، ونجد ابن خلدون يحسم ذلك فيقول: «قد ينسبون إلى الغزالي رحمه الله بعض التأليف فيها وليس بصحيح لأن الرجل لم تكن مداركه العالية لتقف عند خطأ ما يذهبون إليه»[1].

ونجد اليوم في المكتبات مؤلفا مطبوعا ومنسوبا إلى الإمام الغزالي وهو كتاب الأوفاق، وهذا الكتاب منحول ومنسوب زورا للغزالي، أوّلا لأنّ مضمون الكتاب يتعارض بالكلية مع إرث الإمام الغزالي والذي كرّس عمره لترسيخ العقيدة في النفوس ونشر التصوف السني القائم على احترام حدود الشرع، في حين أنّ كتاب الأوفاق يتعلق بالسحر المحض وسفاسف الأمور مثل أعمال العداوة والبغضاء والقطيعة فضلا عن إطلاق اللبن والاختفاء من العين وغيرها من المسائل، وجميعها تناقض عقيدة التوحيد وتخالف سيرة الرجل وطبيعة اهتماماته[2]. والأمر الثاني الذي يثبت عدم صحة هذا الكتاب للغزالي أننا نجد في متن الكتاب للغزالي أننا نجد في متن الكتاب استشهادا بأحمد بن علي البوني (تـ622هـ/ 1225م) صاحب كتاب شمس المعارف الكبرى وهو أشهر كتاب في السحر والعزائم، في حين أن الغزالي توفى قبل البوني بأكثر من قرن ونصف إذا توفى الغزالي سنة (505هـ/ 1111م) فعمد من انتحل الكتاب إلى محاولته إيجاد رابط بين الغزالي والبوني حتى يعطي لكتب البوني مشروعية مفقودة.

فمقصد الغزالي من إقامة مقابلة بين كيمياء الظاهر وكيمياء السعادة إبراز قيمتها وأنها ليست متاحة للجميع «إنّما تكون في خزائن الملوك، فكذلك كيمياء السعادة لا تكون إلا في خزائن الله سبحانه

---

(1) م.ن، ص.ن.

(2) راجع فهرس كتاب الأوفاق، طبعة دار الجيل بيروت، 1989م.

وتعالى[1]، وما في خزائن الله لا يكون إلا نفسيا ومتصف بصفة الخلود والديمومة، ويجعل صاحبه في قمة البهجة و»السُعودة» فلا يعرف الشقاء إليه سبيلا[2]. مؤكدا أنّ كلّ «من طلب هذه الكيمياء من غير حضرة النبوة فقد أخطأ الطريق»[3]، وهي إشارة واضحة وصارمة أن سبيل السعادة شرعي بالأساس، وكلام الغزالي هذا وكأنه رجع صدى لما قاله الإمام الجنيد (ت297هـ/ 910م) والذي يمثل الغزالي امتدادا له لمّا أكّد أنّ «الطرق كلّها مسدودة إلاّ من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام، واتبع سنته ولزم طريقته»[4]، قولا وفعلا وعزما ونيّة[5].

ويشدد الغزالي أن من سلك طريقا آخر غير طريق النبوة وابتغى من ورائه النجاح فسينتهي الأمر إلى الخيبة والإفلاس يوم القيامة رغم أن صاحبه «يظن أنه غنى»[6]، معتبرا أن رحمة الله بعباده «أن أرسل إليهم مائة ألف وأربعة وعشرين ألف نبي يعلمون النّاس نسخة الكيمياء»[7]. فكيمياء السعادة أصلها إلاهي رباني ومرتبطة بجبل من السماء، وتسعى إلى الصفاء وأن تجعل صفات الملائكة لباس وحليته لهؤلاء الأصفياء.

ويكشف الغزالي في آخر مقدمة رسالته عن سر هذه الكيمياء أن ترجع من الدنيا إلى الله [8]. فغاياتها ومقصودها معرفة الله عن طريق التخلي عن صفات النقص والتحلي بصفات الكمال خاتما قوله «وفضل هذه الكيمياء طويل»[1] فماهي منازل طريق السعادة عند الغزالي؟

---

(1) الغزالي: مجموعة رسائل الغزالي، رسالة كيمياء السعادة، ص 419.

(2) راجع ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، د.ت، 2011/3.

(3) الغزالي: مجموعة رسائل الغزالي، رسالة كيمياء السعادة، ص419.

(4) القشيري(عبد الكريم): الرسالة القشيرية، دار الجيل، بيروت، ط/2، د.ت، ص 430.

(5) السّلمي (أبو عبد الرحمن): طبقات الصوفية، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط/3، 1986، ص 268.

(6) الغزالي: مجموعة رسائل الغزالي، كيمياء السعادة، ص 419.

(7) م.ن،ص.ن.

(8) م.ن، ص.ن.

3) سبيل السعادة الكاملة عند الغزالي:

معرفة النفس مفتاح السعادة عند الغزالي:

يرى الغزالي أن مفتاح السعادة الدائمة يتمثل في معرفة النفس، «فإن لم تعرف نفسك فكيف تعرف ربك[2]. معتبرا أن من يدعي معرفة نفسه هو في الحقيقة إنّما يعرف الجسم الظاهر الذي هو اليد والرجل والرأس والجثة ولا تعرف ما في بطنك»[3]. ولا يعني هذا أن الغزالي يقلل من أهمية معرفة وظائف الأعضاء والحكمة من خلقها بل بالعكس فإنه يعتبر علم التشريح «علما عظيما والخلق عنه غافلون وكذلك علم الطب»[4]، لأنه يقود إلى معرفة.

عظمة الله والوقوف على بديع خلقه مما يرسخ الإيمان، فيوقن الإنسان أن إعادة الخلق «أسهل من الابتداء»[5]. وإنّما أراد الغزالي التأكيد على أن «الجسد أول هو الآخر، والنفس آخر وهو الأول»[6]. بمعنى أن معرفة النفس أكثر تعقيدا من معرفة ظاهر الإنسان، فالظاهر متاح للملاحظة، والباطن خفي وتعتمل فيه جملة من الرغبات والشهوات المتلاطمة والتي يصعب ضبطها ورصدها، معتبرا أن معرفة النفس هي مقدمة ضرورية للإجابة عن جملة من الأسئلة الوجودية المقضة، فيقول

---

(1) م.ن، ص.ن.
(2) م.ن، ص420.
(3) م.ن، ص.ن.
(4) م.ن، ص427.
(5) الغزالي: مجموعة رسائل الغزالي، رسالة كيمياء السعادة، ص427.
(6) م.ن، ص420.

مخاطبا الإنسان بأسلوب مباشر «فالواجب عليك أن تعرف نفسك بالحقيقة حتى تدري أي شيء أنت؟ ومن أين جئت إلى هذا المكان؟ ولأي شيء خلقت؟ وبأي شيء سعادتك وبأي شيء شقاوتك[1]؟

ويشرع الغزالي في كشف كوامن الذات عندما يعدد جملة الصفات القابعة في أعماق النفس، والتي هي صفات متعددة ومتضادة تتراوح بين صفات الحيوانات والشياطين والملائكة، معتبرا أن لجميع هذه الصفات «غذاء وسعادة»[2]. فسعادة «البهائم في الأكل والشرب والنوم والنكاح... وسعادة السباح في الضرب والفتك وسعادة الشياطين في المكر والشرّ والحيل... وسعادة الملائكة في مشاهدة جمال حضرة الربوبية وليس للغضب والشهوة إليهم طريق»[3].

بمعنى أن طريق الشهوات والبطش والشرّ هي طرق لسعادة وهمية أنية لا تدوم، وإنّما السعادة الحقة هي السعادة التي ترفل فيها الملائكة والقائمة على القرب والأنس في رحاب الحضرة الإلهية بعيدا عن كل أشكال الشهوات والغرائز.

ولا يمكن بلوغ مرتبة الملائكة والتمتع بمشاهدة «الجلال والجمال»[4]، إلا إذا استطاع الإنسان فهم الحكمة من وجود هذه الغرائز والقوى المركبة فيه، والتي هي في حقيقة الأمر وسائط «تصيدها سعادتك»[5]. فسرّ بلوغ السعادة الأبدية يتمثل أساسا في قدرة الإنسان على ضبط نفسه و»استثمار» قواه خاصة أن النفس عند الغزالي هي بمثابة المدينة المترامية الأطراف والمكونة من عدة ضياع، ولها وال ووزير وملك يصرفون أمورها. فماهي الخطة التي يعرضها الغزالي لبلوغ «الحضرة الإلهية» والتنعم بالسعادة الأبدية؟.

---

(1) م.ن، ص.ن.
(2) م.ن، ص.ن.
(3) م.ن، ص.ن.
(4) الغزالي، مجموعة رسائل الغزالي، ص420.
(5) م.ن، ص.ن.

أ) وصفة الغزالي لبلوغ السعادة:

يعتبر الغزالي أن القلب أهم مكون من مكونات الذات الإنسانية وله أهمية كبرى في بلوغ السعادة، ولا يقصد بالقلب «القطعة اللحمية التي في الصدر من الجانب الأيسر لأنه يكون في الدواب والموتى»[(1)]. وإنّما يقصد بالقلب الملكة القادمة من عالم الغيب والتي لها القدرة على مشاهدة «جمال الحضرة... والتكليف عليه والخطاب معه وله الثواب وعليه العقاب»[(2)]. فالقلب بمثابة القائد بل يصفه الغزالي بأنه الملك.

ويرسم الغزالي الخطى العملية لبلوغ السعادة الأبدية، فيوضح أن الجسد بقواه المختلفة – الظاهرة والباطنة- هو بمثابة»المركب» للقلب، فهو مجرد هيكل وقالب وهذا «القالب لا يقوم إلاّ بالطعام والشراب والحرارة والرطوبة»[(3)]. وتهدده جملة من الأخطار التي تجعل هذه «العساكر» تتوقف ولا تؤدي واجبها، مما يفرض المحافظة على حيوية الجسد لكن دون إسراف وتوسع في الملذات لأن ذلك يهدد بانقلاب الأدوار فيصبح المحكوم حاكما ويصير الإنسان عبدا لشهواته، وإنما يجب التعامل مع البدن تعامل قاصد الحج مع ناقته فيقول: «ولا غرض لك في تنعم ناقتك باللذات بل غرضك مقصور على دفع المهلكات عنها حتى تسير بك إلى مقصودك»[(4)]، معتبرا أن الفضيلة تقع بين رذيلتين فالشهوة «إذا زادت كان الفسق والفجور وإن نقصت كان العجز والفتور وإن توسطت كان العفة والقناعة»[(5)].

---

(1) م.ن، ص.ن.

(2) م.ن، ص421.

(3) الغزالي: مجموعة رسائل الغزالي، رسالة كيمياء السعادة، ص421.

(4) الغزالي: الإحياء، دار الفكر، بيروت، 1988م، 244/4.

(5) الغزالي: مجموعة رسائل الغزالي، رسالة كيمياء السعادة، ص 423.

وتبقى المجاهدة هامة عند الغزالي لكنها ليست غاية في ذاتها، وإنّما هي مجرد وسيلة لبلوغ المقصود لأنه «من اشتغل بالرياضة كان كمن اشتغل طول عمره الدابة برياضتها ولم يركبها»[1].

وتتمثل عساكر الملك في قسمين عساكر ظاهرة وأخرى باطنة، فالعساكر الظاهرة هي الحواس والأعضاء والعساكر الباطنة هي الخيال والحفظ والتذكر والوهم[2]. وجميعها هي التي تحافظ على توازن الإنسان وجلاء وعيه. «فإن ضعف واحد منهم ضعف حال ابن آدم في الدارين»[3]. معتبرا أن هذه القوى طائعة للقلب «كما أن الملائكة طائعون للرّب سبحانه وتعالى»[4].

ويؤكد الغزالي على أن استقرار المدينة «أي الذات الإنسانية» ليس ممكنا إلاّ إذا كانت جملة الشهوات والقوى تحت تصرف العقل، والعقل هو بمثابة الوزير للقلب لأنه «لو جعل العقل تحت يد الغضب والشهوة هلكت نفسه وكان قلبه شقيا في الآخرة»[5]. لذلك يُعدّل القلب من جميع هذه القوى لأن هذه القوى تمثل «تمام السعادة»[6]. فالغضب مثلا «إذا زاد سهل عليه الضرب والقتل وإذا نقص ذهبت الغيرة والحمية في الدين والدنيا وإذا توسط كان الصبر والشجاعة والحكمة»[7]. وبالعقل ساد الإنسان وسيطر على الضواري والبهائم «وتصير كلّها مسخرة له»[8].

ولا يمكن للعقل أن يسود حسب الغزالي إلاّ إذا كان صاحبه من أهل العزائم والمجاهدة، وتُقلد المجاهدة صاحبها أكاليل الشرف وأوسمة الرفعة بل هي من تمنحه إنسانيته، فبفضل المجاهدة تكون رتبة

---

(1) الغزالي: الإحياء، 260/1.
(2) م.ن، ص 422.
(3) الغزالي: مجموعة رسائل الغزالي، رسالة كيمياء السعادة، ص 422.
(4) م.ن، ص.ن.
(5) م.ن، ص.ن.
(6) م.ن، ص423.
(7) م.ن، ص.ن.
(8) م.ن، ص424.

الإنسان «فوق رتبة البهائم لقدرته على كسر شهوته ودون رتبة الملائكة لاستيلاء الشهوات عليه»[(1)]. فإن استطاع المواظبة على المجاهدة وتحرر من قيود الشهوات فإنه حينما يتحلى بأخلاق الملائكة والتي هي «الرحمة والعلم والخير»[(2)]. فالعبرة بالأعمال والتي تتحول إلى صفات، فالملائكة مثلاً ذمهم ومدحهم في صفاتهم وليس في صورهم وخلقهم[(3)]، وكذلك الشياطين.

فالتخلي عن جميع الصفات المذمومة مثل الشرّ والتعلق بالدنيا فضلا عن الحقد والحسد وسائر الآفات القلبيةيقود إلى استبدال صفات بغيضة ظلمانية بصفات أخرى راقية نورانية وذلك هو «حسن الأخلاق وهي صفات الملائكة وهي بذر السعادة»[(4)]. وهذه السعادةتمر ضرورة عبر غلق باب الحس «فيفتح له باب الباطن ويكشف له غيّب من عالم الملكوت ومن اللوح المحفوظ»[(5)]. فالقلب إذا طهّر وصقل صار مثل المرآة واللوح المحفوظ مثل المرآة أيضا... وإذا قابلت المرآة بمرآة أخرى خلت صور ما في إحداهما في الأخرى[(6)]. وذلك عين السعادة الدائمة وبداية طور الكشف عند الغزالي، فماهي مقومات الكشف عند الغزالي؟ وماهي حدوده؟

وفي الختام يمكننا القول أن الغزالي في سائر كيمياء السعادة استطاع تقديم أسرار الوصول إلى السعادة الكاملة بشكل سلس وعملي، فاختزل تجربته الروحية العميقة وتأملاته النظرية الرحبة في بضع صفحات، وأقام الدليل على أن الوصول إلى المعاني الإنسانية الراقية وخاصة مسألة الانتشاء الروحي يتطلب دربة وصنعة ومعرفة بخبايا النفوس وتفاعلاتها، هذه النفوس التي لها كيميائيتها الخاصة، وكأن

---

(1) الغزالي: الإحياء، 279/1.
(2) الغزالي: مجموعة رسائل الغزالي، رسالة كيمياء السعادة، ص422.
(3) م.ن، ص423.
(4) م.ن، ص424.
(5) م.ن، ص.ن.
(6) م.ن، ص425.

الغزالي فتح عن غير قصد الباب أمام علم «كيمياء البشر». فما هي كيمياء البشر؟ وهل البشر بأحاسيسهم وانفعالاتهم وأفعالهم يخضعون لكيمياء الجسد؟

قائمة المصادر والمراجع

1. بدوي (عبد الرحمن)، مؤلفات الغزالي، وكالة مطبوعات الكويت، ط/ 2، 1977م
2. ابن خلدون(عبد الرحمن)، المقدمة، دار الجيل، بيروت، د.ت.
3. السلمي (أبو عبد الرحمن)، طبقات الصوفية، مكتبة الخانجي القاهرة، ط/ 3، 1986،
4. الطائي (فاضل أحمد)، علم الكيمياء والصيدلة عند العرب، مكتبة مدرسة الفقاهة، د.ت
5. عبد الحميد (طه عبد المقصود)، الحضارة الإسلامية، دراسة في تاريخ العلوم، دار الكتب العلمية، 2004م
6. عزوز (محي الدين)، اللامعقول وفلسفة الغزالي، دار العربية للكتاب، 1988م.
7. الغزالي (أبو حامد)، الإحياء، دار الفكر، بيروت، 1988م
8. الغزالي (أبو حامد)، كتاب الأوفاق، طبعة دار الجيل، بيروت، 1989م.
9. الغزالي (أبو حامد)، كيمياء السعادة، تحقيق حسين أحمد أمين، شركة استشارات علمي، طهران، 1380هـ
10. الغزالي (أبو حامد)، مجموعة رسائل الغزالي، رسالة كيمياء السعادة، دار الفكر، بيروت، ط/ 1،
11. الفارابي (أبو نصر)، تحصيل السعادة، دار الهلال، ط/ 1، 1995م.
12. القشيري (عبد الكريم)، الرسالة القشيرية، دار الجيل، بيروت، ط/ 2، د.ت.
13. ابن كثير، البداية والنهاية، دار الفجر للتراث، القاهرة، ط/ 1، 2003م،
14. المعموري(الطاهر)، الغزالي وعلماء المغرب، الدار التونسية للنشر تونس، والمؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1990م.
15. المناوي (زين الدين)، طبقات الصوفية، دار صادر، بيروت-لبنان، ط/ 1، 1999م
16. ابن النديم، الفهرست، دار المعرفة، بيروت، د.ت.

❖المعاجم والموسوعات

17. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، د.ت.
18. الموسوعة الفلسفية العربية، معهد الإنماء العربي، ط/ 1، 1988م.